﴿... فَاذكرُوا اللّهَ ...﴾

(١)

حسن الحاج.[١]

ملخّص البحث:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنْتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللَّهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ* وِمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ* أُولَـٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ *وَاذْكُرُواْ اللهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.[٢]

---

١. محقق و باحثٌ ديني.

٢. سورة البقرة: ١٩٨ـ٢٠٣.

إنَّ تكرار الذكر مرّات في هذا المقطع القرآني المختصّ بالحجّ؛ لعلّه يُراد منه بيان شدّة العناية الإلهيّة بخلقه سبحانه وتعالى، وبما ينفعهم؛ خاصة بأولئك الوافدين لأداء مناسك الحجّ في هذه البقاع المباركة: عرفات والمشعر الحرام ومنى، فضلاً عن المسجد الحرام وكعبته المباركة..، وحضّهم وتشجيعهم لترك ما لا ينفع، وترغيبهم وتوجيههم لفعل ما هو كثير فائدةٍ وعظيم ثوابٍ لهم، فإنَّ خير ما يقع في هذه البقاع والأوقات المباركة هو ذكر الله تعالى والاستزادة منه من قبل أولئك الذين يقصدون البيت الحرام وما حوله من بقاعٍ مشرّفة؛ حجّاجاً وعمّاراً، أفراداً وأفواجاً، ذكوراً وإناثاً، ﴿**يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا**﴾!

***

هناك على رمال عرفات، وعلى مقربة من جبلها يتجسّد مشهدٌ مهيبٌ، جليلٌ فضلُه، موقفٌ مباركٌ؛ يوم عرفة، لا يتمُّ الحجُّ إلّا به، حيث ركن الحجّ الأكبر، ملتقى الذاكرين المتعبّدين، ومأوى الوافدين المتأملين آياته سبحانه، الراجين رحمته ومغفرته، وقد ركنت قلوبهم إلى جنبه، وسكنت إلى ذكره أنساً به واعتماداً عليه ورجاءً منه؛ ليكونوا جزءًا من ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾.[1]

جزءًا من مشهد مشرق لقلوبٍ مؤمنةٍ مطمئنةٍ بذكره عزَّ وجلَّ، من لوحة لنفوس عارفة، تتحرك نحوه تعالى بقلوب وجلة خاشعة، وأكفٍّ متضرّعة، وعيون باكية، وألسن تردّد ذكره المبارك، تعيش أجواءه، وقد تجلّت سلاماً وأماناً، فتضفي عليها الطمأنينة، وكيف لا تطمئن هذه النفوس، وهي تر أنَّها بجواره سبحانه وفي حفظه ورعايته، فلا وحدة توحشها، ولا حيرة تقلقها، ولا خوف ينتابها، آمنة من أي تجاوز أو اعتداء، أو ضرّ أو سوء إلّا بما يشاء ويرضى، تزداد تسليماً واطمئناناً أنَّ ما يختاره

١. سورة الرعد: ٢٨.

لها ربُّها من خيرٍ أو ضرٍّ، من نعمة أو بلاء يعود عليها بالمنفعة، إن في الدنيا وإن في الآخرة، خاصةً إذا قابلت ذلك بالشكر ورضيت به، وتحلّت بالصبر الجميل، وبالتالي تكمن السعادة وديمومتها بذكره تعالى، فيما يُغادر الضنك والمشقّة والسأم عن ذكره سبحانه؟!

إذن فالتنزيل العزيز بآياته الآمرة بالذكر والدّاعية إليه؛ ومنها الآية المذكورة: يرسم صورة شفيفة للقلوب المؤمنة، في جوٍّ من الطمأنينة والأنس والبشاشة والسلام، تطمئن بإحساسها بالصلة بالله، والأنس بجواره، والأمن في جانبه وفي حماه؛ تطمئن من قلق الوحدة، وحيرة الطريق، بإدراك الحكمة في الخلق والمبدإ والمصير، وتطمئن بالشعور بالحماية من كلّ اعتداء، ومن كلّ ضرٍّ ومن كلّ شرٍّ إلّا بما يشاء، مع الرضا بالابتلاء والصبر على البلاء، وتطمئن برحمته في الهداية والرزق والستر في الدنيا والآخرة.

ذلك الاطمئنان بذكر الله في قلوب المؤمنين حقيقة عميقة، يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، فاتصلت بالله؛ ... وليس أشقى على وجه هذه الأرض ممن يحرمون طمأنينة الأنس إلى الله، ليس أشقى ممن ينطلق في هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله في الكون؛ لأنه انفصم من العروة الوثقى التي تربطه بما حوله في الله خالق الكون. ليس أشقى ممن يعيش لا يدري لِم جاء؟ ولِم يذهب؟ ولِم يعان ما يعاني في الحياة؟ وإنَّ هناك للحظات في الحياة لا يصمد لها بشر، إلّا أن يكون مرتكناً إلى الله، مطمئناً إلى حماه، مهما أوتي من القوة والثبات والصلابة والاعتداد.. ففي الحياة لحظات تعصف بهذا كلّه، فلا يصمد لها إلّا المطمئنون بالله! هؤلاء المنيبون إلى الله، المطمئنون بذكر الله، يحسن الله مآبهم عنده، كما أحسنوا الإنابة إليه، وكما أحسنوا العمل في الحياة..![1]

لقد تكرر الذكر مرتين، وكذا اطمئنان القلوب هو الآخر تكرر مرتين في الآية المباركة: ﴿...وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

١. السيد قطب،في ظلال القرآن الآية: ٢٨ من سورة الرعد. باختصار.

لعلّ فيه حثًّا على مداومة ذكر الله تعالى في جميع الظروف الزمانية والمكانية والأحداث والوقائع، سواء أكان العبد المؤمن في سرّاء أم ضرّاء، في فرج أم عسر، في نعمة أم بؤس..؛ فما دام إحسانه عزَّ وجلَّ في جميع الحالات، وهو إحسان لا ينقطع، فذكره تعالى ينبغي، بل يجب أن لا ينقطع ولا يتوقف... ذكرٌ يغني عن كلّ شيء، وكافٍ عن جميع المخلوقات، به نحظى برضا الله عزَّ وجلَّ، فنسعد في الدنيا والآخرة..

ولعلَّ فيه إغراءً بالإكثار منه، خاصةً الحجيج وهم في ضيافة الرحمن ووفادته، يناجون ربَّهم وحده لا شريك له، وقد تجرّدوا وابتعدوا عن كلّ ما يشدُّهم إلى الدنيا، وكيف لا؛ وهم في حشرٍ يذكرهم بيوم الحشر الأكبر، ومشهدٍ من مشاهد يوم القيامة حيث لا قوة ولا سلطان ولا جاه ينفعهم، ولا مال ينقذهم، ولا معين ولا سند ولا حسب يركنوا إليه..؟!

إنَّ عرفة موقفٌ بين يدي الله تعالى، وذكرٌ يجسد الاعتراف بربوبيته سبحانه، وتعهدٌ بالتزام أوامره ... نعم هو غنيٌّ عن كلّ ذلك، وليس بحاجة إليه ﴿**وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾.[1]

ولكنها مكابدة يومية وشهرية وموسمية، فرضتها شريعة السماء ودعت إليها، غايتها تنقية النفوس من أدرانها والتحرر من أغلالها، ولا يتمُّ ذلك إلّا بالمزيد من ذكر الله تعالى والتفاعل مع هذا الذكر، وما فصول الأدعية المأثورة عند المسلمين؛ ومنها دعاء الإمام الحسين ودعاء ابنه عليّ عليهما السلام التي يستحب الدعاء بها في البقاع المشرفة، وبالذات في عرصة عرفة ويومها، إلّا جزءٌ مبارك من ذكر الله تعالى والثناء عليه ومناجاته والتوسل به وسؤاله المغفرة؛ لتطهير النفوس واستعادة حريتها من الأهواء وقيود الدنيا وملاذها التي تشدّها إلى الأرض... ثمَّ ينطلقون عبر إفاضة مباركة حاشدة إلى موقف آخر إلى المزدلفة حيث المشعر الحرام؛ ليُلبّوا أمره: ﴿...**فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ**

١. سورة فاطر: ١٥.

﴿الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾.

ذكراً حسناً؛ صلاةً ودعاءً، استغفاراً وتوسلاً، تكبيراً وتهليلاً وتلبيةً، إنَّه ذكر يخالط اللسان والقلب، ويحفظ إحسانه تعالى، وعظيم ما أنعم به علينا، فذكره عزَّوجلَّ شرف للعبد ما بعده ولا قبله شرف ولا فضل، تسمو به روحه، وتعلو به منزلته، ويتجذر به إيمانه، وتنفتح به بصيرته ...، تمهيداً لإفاضة أُخرى تبدأ من المزدلفة إلى حيث منى يرافقها ذكر الله سبحانه...

وفي هذه المواقف نجد ذكر الله هو الأكبر والأعظم، وقد ورد بآيات قرآنيّة كثيرة العدد، وهو من العبادات التي يتقرب بها إلى الله تعالى بل العبادات قائمة عليه، بل الحياة بكلّ مفاصلها بدون ذكر الله تُعدُّ حياةً بلا معنى، بل هي الموت بعينه حتى نُسب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «مثل الذي يذكر ربَّه، والذي لا يذكر ربَّه، مثل الحي والميت»!

وحقيق بالعبد ألَّا يفتُرَ لسانه من ذكر الله سبحانه، وألَّا يزال لَهِجًا بذكره تعالى، فبالذكر يغادر اللسان اليبوسة ويبقى رطباً، وقد ورد أنَّ رجلاً سأل النبيَّ صلى الله عليه وآله قائلاً:

إنَّ شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ، وأنا قد كبرتُ، فأخبرني بشيء أتشبث به، ولا تُكثر عليَّ فأنسى!

قال صلى الله عليه وآله: «لا يزال لسانُك رطباً بذكر الله تعالى»![1]

فما أجمل أن يكون لسان العبد رطباً بذكره تعالى، بمعنى أن يكون مشغولاً بذكره عزَّ وجلَّ استغفاراً وتسبيحاً وتهليلاً... فيكون العبد ممن تصدق عليه الآية الكريمة: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ اللهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾.[2]

---

١. صحيح البخاري: ٦٤٠٧، الترمذي ٣٣٧٥.

٢. سورة الأحزاب: ٤١.

و يكـون مـن أولئـك ﴿الَّذِيـنَ يَذْكُـرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُـوداً وَعَلَى جُنُوبِهِـمْ ...﴾.[1] لا مـن المنافقـين الذيـن وإن ذكـروا الله، يذكرونـه خداعـاً وكسـلاً، وعـلى قلّة ونـدرة ورياء ... ﴿إِنَّ الْمنَافِقِـينَ يُخَادِعُـونَ اللهَ وَهُـوَ خَادِعُهُـمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَـالَى يُـرَآءُونَ النَّـاسَ وَلاَ يَذْكُـرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.[2]

علـماً بـأنَّ الصلـة بـين المؤمنـين وخالقهـم لا بـدَّ لها مـن وسـائل تتحقـق بها؛ وبـما أنَّ الإنسـان مهـما بلغ من القـدرة والمعرفـة عاجز عـن إيجادها كـما تُريدها السـماء، وبما تحفظ بهـا تلـك الصلة الطيبة، ويحقق لـه الفوز في الدنيـا والآخرة، فقد تكفّل الله سـبحانه بيانها، ومـن أهمهـا: الذكـر، .. وبالتـالي لا ينبغـي أن يغفل المؤمن عـن ذلك، فيفقد هـذه العلاقة وطرقهـا ويخسر مضامينها، وأن لا يشـغله شـاغل من تكاثـر بالأمـوال والأنفس عن هذا الذكـر المبـارك والأدب العظيـم وأقـوى الصـلات بالله عزَّ وجـلَّ، وإلّا فهو ممن خسـروا ثـواب الله ورحمتـه ورضوانه، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُلْهِكُـمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُـمْ عَـن ذِكْـرِ اللهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَـئِكَ هُـمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

مع المقطع القرآني :

بعـد كلّ هـذا وغـيره الكثـير يدعـو للوقوف عنـد المقطـع المختار الـذي تّعـدُّ آياته من أهـم آيـات الحـجِّ التـي نزلـت في حجّة الـوداع، آخـر حجّة حجّهـا رسـول الله ﷺ وفيها تشريـع حـجّ التمتع، والمسـبوقة بأحكام الحـجّ والملحوقة بها، نقف عند جزئيـة مهمة منه؛ عنـد الذكـر المأمور بـه، وقد تكـرّر مـرّات في ثلاث آيات مـن هذا المقطـع: ﴿فَاذْكُـرُواْ .. وَاذْكُـرُوهُ.. فَاذْكُـرُواْ .. كَذِكْرِكُـمْ .. ذِكْـراً .. وَاذْكُـرُواْ ...﴾. لمـا لـه مـن أهميـة عظيمة وفضـل جليـل؛ ولأنـه يُعدُّ أرفـع أدبٍ و ألزم سـلوكٍ لأداء مناسـك هذه العبـادة المباركة،

---

١. سورة آل عمران : ١٩١ .

٢. سورة النساء : ١٤٢ .

فذكره جلّ جلاله ليس فقط يُشكّل أدباً عظيماً، بل يُعدُّ من أقوى الصلات بالله سبحانه وتعالى، إنَّه عبادة، اختارها الله وارتضاها، وأمر بها عباده المؤمنين في مواضع من القرآن الكريم، كما أنَّه ذو علاقة وثيقة بالتقوى التي هي الهدف الخاتم للحجّ ولموسمه وأيامه التي كانوا يسمونها أيام ذكر؛ لعظمة الذكر وبركاته وأهميته، فكانوا يمتنعون عن البيع والشراء فيها وهما عصبا الحياة؛ فقد ورد عن ابن عباس أنَّه قال: «كانوا يتقون البيوع والتجارة في الموسم والحجّ، يقولون: أيام ذكر. فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾، فَاتَّجَرُوا».[1]

نقف عنده بآياته لغةً وإعراباً وبلاغةً ومراداً وفضلاً ودرساً فقهيًّا..، ونبدأ بالآية:

الأولى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ وَاذْكُرُوهُ كَما هَداكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾.

جموع بشرية راحت الآية المباركة تصورهم، وهم يتدفقون من عرفات إلى المزدلفة أجلَّ وأهيب تصويرٍ كفيضان بحرٍ وانسياب ماءٍ كثير في منظر مهيب عظيم، تهتزُّ له المشاعر والقلوب والأذهان، وعيونهم ترمق السماء حيث الرحمة الإلهية التي لا يحدُّها حدٌّ، إنَّها إفاضة كبرى قد تجردوا فيها من ذنوبٍ كثيرة، وتطهروا من أدرانٍ أصيبوا بها، وها هم الآن يتضرعون؛ يأملون مغفرةً من ربِّهم ورضواناً، فما أعظم هذه الظاهرة، وما أروعها حين يصورها التنزيل العزيز بالإفاضة، وكأنَّهم خيرات أرضٍ تجمّعت ثمَّ فاضت، أو مياه نهر سالت من ضفتيه، فشكّل فيضان ماءٍ غزيرٍ أتى على نفوسهم؛ ليُطهرها كما يُطهر الفيضان أعماق ما يأتي عليه من مخلفات، فيظهر كياناً صافياً رائقاً.

١. الواحدي، أسباب النزول، الآية.

الإعراب :

... ﴿فَإِذا﴾: الفاء استئنافية، وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن متعلق بالجواب.

﴿أَفَضْتُمْ﴾: فعل وفاعل والجملة في محل جرٍّ بالإضافة .

﴿مِنْ عَرَفاتٍ﴾: الجار والمجرور متعلقان بأفضتم.

﴿فَاذْكُرُوا﴾: الفاء رابطة لجواب الشرط، واذكروا فعل أمر وفاعل، والجملة لا محل لها؛ لأنها جواب شرط غير جازم.

﴿اللهَ﴾: مفعول به.

﴿عِنْدَ الْمَشْعَرِ﴾: الظرف متعلق باذكروا.

﴿الْحَرامِ﴾: صفة للمشعر، ولك أن تعلق الظرف بمحذوف حال أي: كائنين عند المشعر الحرم .

﴿وَاذْكُرُوهُ﴾ : الواو عاطفة وكررها للتوكيد. واذكروه فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والهاء مفعول به.

﴿كَما هَداكُمْ﴾: الكاف حرف جرٍّ وما مصدرية، وهي مع مجرورها في محل نصب مفعول مطلق أو حال، أي : اذكروه ذكراً حسناً، أو اذكروه مثل هدايته إياكم، وجملة هداكم لا محل لها ؛ لأنها واقعة بعد موصول حرفي .

﴿وَإِنْ﴾ : الواو حالية، وإن مخففة من الثقيلة.

﴿كُنْتُمْ﴾: كان الناقصة واسمها.

﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾: الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال.

﴿لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ اللام هي الفارقة. ومن الضالين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر كنتم.[1]

---

١. محي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم ١ : ٢٩٥ـ٣٠٣ .

﴿أَفَضْتُمْ﴾ لغةً :

فـاض الماءُ ، يفيض فَيْضـاً، وفُيُوضاً، وفَيَضاناً: كثر حتى سـال. فهـو فائض، وفيّاض. ويقـال: فـاض النهـر، وفاض السـيل. وـ الإناءُ: امتلأ حتـى طفح. وـ عينه: سـال دمعها. و الـشيء: كثر. يقـال: فاض الخَيْر... ومنـه الإفَاضَة ..

ومصدر أفاض: إفاضة ، والإفاضة : انصراف الحجيج عن الموقف في عرفة.

دفعتـم أنفسـكم وسرتـم للخـروج منهـا، والإفاضـة دفـع بكثرة مـن أفضت المـاء إذا صببتـه بكثرة.

وفي المصباح المنير: فاض السـيل يفيض فيضاً: كثر وسـال من شَـفة الـوادي .. وفاض الخير: كثـر. وأفاضه الله: كثّره.

وأفـاض النـاس من عرفـات دفعـوا منهـا، وكلّ دفعـة إفاضـة. وأفاضوا مـن منى الى مكـة يـوم النحـر رجعـوا إليهـا، ومنـه طـواف الإفاضـة أي طـواف الرجوع مـن منى إلى مكة .

الطـبري: ﴿فـإذَا أَفَضْتُـمْ﴾ فـإذا رجعتـم مـن حيـث بدأتـم؛ ولذلـك قيـل للذي يضرب القداح بـين الأيسار مفـيض، لـجمعه القداح ثم إفـاضته إياها بـين المياسرين، ومنـه قـول بشر:

فَقُلْـتُ لَهَـا رُدّي إلَـيْهِ جَنَانَـهُ فَرَدَّتْ كَمَا رَدَّ الـمَنِيحَ مُفِيضُ

الزمخـشري: دفعتـم بكثـرة، وهـو مـن إفاضة المـاء وهـو صبه بكثـرة، وأصلـه أفضتم أنفسـكم، فـترك ذكـر المفعـول كما تـرك في دفعـوا من موضـع كـذا وصبوا.

الطـبرسي: «... والإِفاضـة مأخـوذة مـن فيـض الإِنـاء عـن امتلائـه، فمعنـى أفضتم: دفعتـم مـن عرفـات إلى المزدلفة عن اجتـماع وكثـرة، ويقال: أفـاض القوم في الحديـث إِذا اندفعـوا فيـه وأكثروا التـصرف، وأفاض الرجـل إِناءه إِذا صَبَّـه، وأفاض الرجـل بالقداح

إذا ضرب بها؛ لأنها تقع متفرقة، قال أبو ذُؤيب:

وَكَأَنَّهُنَّ رِبَابَةٌ وَكَأَنَّهُ يَسَرٌ يُفيضُ عَلَى الْقِداحِ وَيَصْدَعُ

وأفاض البعير بجرته إذا رمى بها متفرقة كثيرة، قال الراعي:

وَأَفَضْنَ بَعْدَ كُظُومِهِنَّ بِجِرَةٍ مِنْ ذِي الأَباطِحِ إِذْ رَعَيْنَ حَقيلا

فالإفاضة في اللغة لا تكون إلاَّ عن تفرق أو كثرة ...

أما عرفة فهي مصدر لفعل عرف يعرف ... وتعني كلمة عرفة: الرمل والمكان المرتفع.

وعرفات في تسميتها أقوال عديدة، سمّيت كذلك إمّا لأنها نعت لإبراهيم عليه السلام، لمّا أبصره عرفه، أو لأنَّ جبريل عليه السلام كان يدور به في المشاعر، فلما أراه إياه قال قد عرفت، أو لأنَّ آدم وحواء التقيا فيها فتعارفا، أو لأنَّ الناس يتعارفون فيها.. وقيل: سميت بذلك لعلّوها وارتفاعها ومنه عرف الديك...

وقد وردت «عرفات» في التنزيل العزيز مرة واحدة في الآية ١٩٨ البقرة، فيما وردت في كلام رسول الله صلى الله عليه وآله عرفة مفردة: «الحجُّ عرفة» «الحج عرفة فمن أدرك عرفة فقد أدرك الحج».

وعرفة؛ قيل: اسم لموقف الحاج ذلك اليوم، وهي اثنا عشر ميلاً من مكة. وسمي عرفات أيضاً: ﴿فَإِذَا أَفَضتُم مِن عَرفَاتٍ﴾.

وقال النيسابوري: عرفات جمع عرفة. وكلاهما علم للموقف، كأنَّ كلَّ قطعة من تلك الأرض عرفة، فسمّي مجموع تلك القطعة بعرفات. وكذا قال ابن الحاجب في شرح المفصل.

قال الطبرسي: عرفات: اسم للبقعة المعروفة التي يجب الوقوف بها، ويوم عرفة يوم الوقوف بها. و وافق على ذلك الفيروزأبادي. وهذا القول مبنيٌّ على إنكار كون

عرفة اسماً للموقف. وهو قول الفراء.(اللغات).

وأما المشعر الحرام فهو الآخر في تسميته أقوال عديدة؛ المَشعَرُ: المعلم؛ لأنه معلم العبادة.. موضع مناسك الحجّ، وجمعها مشاعر، ومشاعر الحجّ: مناسكه والأعمال التي تُتمّمه.. والمشعر الحرام: المزدلفة.. ووصف بالحرام؛ لحرمته..

وسميت جمعاً؛ عن ابن عباس أنه نظر إلى الناس ليلة جمع، فقال: لقد أدركت الناس هذه الليلة لا ينامون. وقيل: سميت المزدلفة وجمعاً؛ لأنّ آدم صلوات الله عليه اجتمع فيها مع حواء وازدلف إليها، أي دنا منها. وعن قتادة: لأنه يجمع فيها بين الصلاتين.

ويجوز أن يقال: وصفت بفعل أهلها؛ لأنّهم يزدلفون إلى الله أي يتقرّبون بالوقوف فيها.[1]

الذكر لغةً:

ذَكَرَ الشيءَ ـُ ذِكْراً، وذُكْراً، وذِكْرَى، وتَذكاراً: حَفِظَه. و ـ اسحضَرَهُ. فالذكر مصدر ذكَر الشّيء يذكره ذِكْراً وذُكْراً، و ـ جَرَى على لسانه بعد نسيانه، و ـ اللهَ: أَثنى عليه. و ـ النعمةَ: شكرها

و ـ الشيءَ له: أَعلمه به. و ـ حَقَّه: حَفِظه ولم يُضَيِّعْه.) ذَكِرَ (ـَذَكَراً: جاد ذِكْرُه وحِفظه. فهو ذَكِرٌ، الحقَّ عليه: أَظهره وأَعلنه. و ـ فلاناً الشيءَ: جعله يذكُرُه، ... (ذكَّرَ) و ـ فلاناً الشيءَ، وبه: أَذْكَرَهُ.(اذَّكَرَهُ): ذكره. ويُقال: اذدكَرَهُ، وادَّكَرَهُ.(تَذَاكَرُوا) في الأَمر: تفاوضوا فيه. و ـ الشيءَ: ذكروه...

---

١. المعجم الوسيط: ٤٨٥؛ والمصباح المنير، للفيومي: ٢٥٧: فاض؛ جامع البيان في تفسير القرآن؛ مجمع البيان، للطبرسي؛ الكشاف، للزمخشري: الآية؛ معجم الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري رقم: ١٤٣٠؛ وانظر مقالة: إفاضة بل إفاضتان في العدد ١٩ من هذه المجلة.

(اسْتَذْكَرَ) فلاناً: ربط في إِصْبَعِه خيطاً ليذكرَ حاجتَهُ. و ـ الشيءَ: ذكَرَه. (الذَّاكِرَةُ): قدرةُ النَّفْسِ على الاحتفاظ بالتجارب السابقة واستعادتها. .. (التَّذْكِرَةُ): ما تُسْتَذْكر به الحاجةُ. و ـ ما يدعو إلى الذكر والعبرة. ﴿كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾.

وكما للتذكّر مرادفات مثل: استذكار وادّكار وذِكر .. وللفعل ادّكَرَ، استذكَرَ، ذَكَرَ، له أضداد كالنسيان والغفلة والسهو.

والتذكر والنسيان تشكلان ثنائية لابدّيّة في النفس البشرية، كما أنَّ للفعل ذَكَرَ أصلين كما يذهب إليه أهل اللغة يتفرّع عليهما جميع معانيه، الأول هو الذَكَرُ مقابل الأُنثى كما في الآيتين الكريمتين:

﴿... وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى ...﴾.[1]

﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾.[2]

فيما الأصل الآخر: الذِكر مقابل النسيان.

ابن منظور: ... وذَكَرْتُ الشيء بعد النسيان،... وتَذَكَّرْتُه وأَذْكَرْتُه غيري وذَكَّرْتُه بمعنًى. قال الله تعالى: ﴿وَادَّكَرَ بَعدَ أُمَّةٍ﴾. أَي ذَكَرَ بعد نِسْيان، وأَصله اذْتَكَرَ فَأُدغم...

ابن فارس: ذَكَرَ: ... الذَّالُ وَالْكَافُ وَالرَّاءُ أَصْلَانِ، عَنْهُمَا يَتَفَرَّعُ كَلِمُ الْبَاب. الَّتِي وَلَدَتْ ذَكَرًا... فَالْمَذْكِرُ.

وَالْأَصْلُ الْآخَرُ: ذَكَرْتُ الشَّيْءَ، خِلَافُ نَسِيتُهُ. ثُمَّ حُمِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ بِاللِّسَانِ.

وَيَقُولُونَ: ... اجْعَلْهُ مِنْكَ عَلَى ذُكْرٍ، بِضَمِّ الذَّالِ، أَيْ لَا تَنْسَهُ.

وهذا الأكثر وروداً في الآيات القرآنيّة المباركة.

وقال الكسائيّ: الذّكر باللّسان ضدّ الإنصات ذاله مكسورة، وبالقلب ضدّ النّسيان

١. سورة آل عمران: ٣٦.

٢. سورة النساء: ١١.

وذالـه مضمومـة، وقال غيره: بـل هما لغتان.

وفي شرح لفـظ الذكـر، يقـول أبو الحسـن الواحدي: أصـل الذكر في اللغـة: التنبه على الـشيء وإذا ذكرتـه، فقـد تنبهـت عليـه، ومن ذكـرك شـيئًا، فقد نبهـك عليـه، وليس من لازمـه أن يكون بعد نسـيان.

ثـمَّ قـال: ومعنـى الذكـر حضـور المعنـى في النفـس، ويكـون تـارةً بالقلـب، وتـارةً باللسـان، وتـارةً بهما، وهـو أفضـل الذكـر، ويليـه ذكـر القلـب، والله أعلـم.[1]

هذا في اللغة، وأما الذكر اصطلاحاً:

فهنـاك تعريفـات ذُكـرت؛ يمكـن أن نسـتفيد منهـا بيانـاً للذكـر اصطلاحـاً، فقد يأتي كـما ذكـروا بمعنـى ذكـر الإنسـان لربِّـه تعالى إخبـاراً عـن صفاتـه عـزَّ وجـلَّ أو أفعاله أو أحكامـه، أو تـلاوةً لكتابـه تعالى أو دعاءً بأن يدعوه ويسـأله، أو ثناءً عليه سـبحانه أوصافاً وآلاءً وأسـماءً، أوتقديسـاً وتمجيـداً وتوحيداً وشـكراً وتعظيماً لـه... أو أنّ الذكر هو كلّ ما تكلـم بـه اللسـان وتصـوره القلـب مما يقـرب إلى الله عـزَّ وأجلَّ مـن تعلم علـم وتعليمه، وأمـر بمعـروف ونهـي عن منكـر... أو هو مـا وضعه الشـارع ليتعبد به، أو هـو ما مدلوله الثنـاء عـلى الله تعـالى، بمعنـى أنَّ الذكر اصطلاحـاً مخصوص بذكـر العبد ربّه إخبـاراً عن ذاتـه المقدسـة، أو صفاتـه، أو أفعالـه، أو أحكامـه، أو بتـلاوة كتابـه، أو بمسـألته ودعائه، ويتجـلّى بشـكل أخـصّ بالثناء عليه عـزَّ وجلَّ عبر تقديسـه، وتمجيده، وتوحيـده، وحمده، وشـكره وتعظيمه...

إضافةً إلى هذا الإيجاز نذكر بعض تعريفاتهم للذكر اصطلاحاً:

الراغـب يقـول: الذكـر تارةً يقـال ويراد بـه هيئة للنفس بهـا يمكن للانسـان أن يحفظ

---

١. انظـر لسـان العـرب، لابـن منظـور؛ مقاييـس اللغـة، لابـن فـارس: ذكـر؛ المعجـم الوسـيط: ذكر؛ التفسـير البسـيط، للواحـدي؛ والمجمـوع شرح المهـذب، للنـووي ١ : ٧٤.

ما يقتنيه من المعرفة وهو كالحفظ، إلّا أنَّ الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه، والذكر يقال اعتباراً باستحضاره، وتارةً يقال لحضور الشيء القلب أو القول... ولذلك قيل: الذكر ذكران: ذكر بالقلب وذكر باللسان، وكلّ واحد منهما ضربان، ذكر عن نسيان وذكر لا عن نسيان، بل عن إدامة الحفظ. وكلّ قول يقال له ذكر...

أما أبو البقاء: فبعد كلامه أنَّ الذّكر بِالْكَسْرِ لَهُ مَعْنيانِ: أَحدهمَا: التَّلَفُّظ بالشَّيْء، وَالثَّانِي: إِحْضَاره فِي الذِّهْن بِحَيْثُ لَا يغيب عَنهُ، وَهُوَ ضد النسْيَان. والذكر بِالضَّمِّ للمعنى الثاني لا غير. وَإِذا أُرِيد بِالذكر الْحَاصِل بِالْمَصْدَرِ يجمع على أذكار. يقول: الذكر وَهُوَ الْإِتْيَان بِأَلْفَاظ ورد التَّرْغِيب فِيهَا، وَيُطلق وَيُرَاد بِهِ الْمُوَاظبَة على الْعَمَل بِمَا أوجبه أَو ندب إِلَيْهِ كالتلاوة وَقِرَاءَة الْأَحَادِيث ودرس الْعلم، وَالنَّفْل بِالصَّلَاةِ.

هذا وجاء هذا اللفظ القرآني بمشتقاته، وتكرر بصيغ عديدة في التنزيل العزيز، فهي لفظة متواترة الحضور في القرآن الكريم، لعلّها ذكرت مائتين واثنتين وتسعين مرةً في مائتين وتسع وستين آية، منها مائة واثنتان وتسعون آية مكية، وسبع وسبعون آية مدنية في إحدى وسبعين سورة من كتاب الله تعالى؛ منها ثلاث وخمسون سورة مكية، وثماني عشرة سورة مدنية، وبعدة صيغ واشتقاقات: مائة وخمس وخمسون بصيغة الفعل بأنواعه الثلاثة: الماضي: ثمان وعشرون مرةً. المضارع: واحد وسبعون مرةً، ولعلّ الإكثار من صيغة المضارع لما في هذه الصيغة من التجدد والاستمرار والدوام، وبالتالي ففيها حثٌّ على دوام الذكر والتفكر والاعتبار حتى حظي الذاكرون بمنزلة طيبة ومدح رفيع كما في الآية: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ... وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً**﴾.[1]

فيما الأمر: ست وخمسون مرةً، وهي صيغة أمر وحثٍّ وتفيد الاستقبال.

وأما بالصيغة الاسمية، فقد جاء هذا اللفظ مائة وسبعاً وثلاثين مرةً، وأريد به

١. سورة الأحزاب ٣٥.

معاني عديدة، لعلّها تجاوزت عند بعضٍ عشرين معنًى، فيما آخر ذكر لها خمسة عشر وجهاً... نكتفي ببعضها:

القرآن الكريم: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾.[1] ذكر لمن تذكر به، موعظة لمن اتعظ به.

القرآن أو الشرف أو النبيّ المرسل: ﴿فَاتَّقُواْ اللهَ يَاأُوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُواْ قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَّسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ...﴾. يعني القرآن ﴿رَسُولاً﴾ بدل من الذكر، وقيل: أنزل إليكم قرآناً وأرسل رسولاً. وقيل: مع الرسول، وقيل: «الذكر» هو الرسول. وقيل: «ذكراً» أي شرفاً.

﴿وَالقُرآنِ ذِى الذِّكرِ﴾.[2] أي ذي البيان.

صلاة الجمعة أو خطبتها التي تتضمن ذكر الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْاْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُواْ الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.[3]

الصلوات الخمس المفروضة، أو جميع طاعاته تعالى، أو شكره على نعمائه والصبر على بلائه والرضا بقضائه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.[4]

الشرف: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾.[5]

---

١. سورة الأنعام: ٥٠.

٢. سورة ص: ١.

٣. سورة الجمعة: ٩.

٤. سورة المنافقون: ٩.

٥. سورة الزخرف: ٤٤.

التذكـر: اسـتحضار الـشيء بعـد نسـيانه. ﴿وَالَّذِيـنَ إِذَا فَعَلُـواْ فَاحِشَـةً أَوْ ظَلَمُـواْ أَنْفُسَـهُمْ ذَكَـرُواْ اللهَ فَاسْـتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِـرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَـمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَـا فَعَلُـواْ وَهُـمْ يَعْلَمُونَ﴾.[1]

العـبرة والعظـة: ﴿وَذَكِّـرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.[2] ﴿فَلَـمَّا نَسُـوا مَـا ذُكِّرُوا بِهِ﴾.[3]

وهذا الوجه كثير في التنزيل العزيز.

الطاعة: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾.[4]

هـذا وذكـروا أنَّ لمفهـوم الذكـر عـدّة معـانٍ وأنـواعٍ ووجـوه، لعـلّ جميعها تنضـمُّ إلى معنيـين؛ عـام وخاص:

والأول يتوفّـر عـلى العبادة؛ واجبهـا ومسـتحبها، وبأنواعهما من صـلاة وصيام وحجّ و... فهـي طاعـات وبلا شـك تُقـام لذكره تعـالى، وعبـادات يُتقرّب بها إليه سـبحانه.

فيـما الثـاني يتوفّـر على ألفـاظ ومفردات، منهـا ما ورد عن الله سـبحانه وتعـالى في كتابه العزيـز، ومنهـا مـا جـاء عـن رسـول الله وآل بيته صلـوات الله عليهـم، وعـن الصالحين؛ وفيهـا ثنـاء وتمجيـد، وتنزيـه، وتقديس، ويعـود كلاهما إلى نوعين رئيسـيين مـن الذكر:

الذكـر القلبـي والذكر اللسـاني: بمعنـى ذكـر في القلب يقابلـه ذكر باللسـان. والذي بالقلـب يوصـف عـادةً بالقـوة، أما ذكـر اللسـان فيوصـف بالكثرة؛ ومـا توافقـا فيه فهو

---

١. سورة آل عمران: ١٣٥.

٢. سورة الذاريات: ٥٥.

٣. سورة الأنعام: ٤٤.

٤. سـورة البقـرة: ١٥٢؛ انظر: مفردات غريـب القرآن، للاصفهـاني ١: ٣٢٨ـ٣٢٩؛ الوجوه والنظائر، لأبي هـلال العسـكري: ٢٢١ـ٢٢٥. ذكـر؛ تفسـير معـالم التنزيـل، البغـوي؛ تفسـير مجمـع البيـان، للطـبرسي الآيـة؛ كتاب الكليـات، لأبي البقاء الكفـوي ١: ٤٥٦؛ الموسـوعة الفقهيـة الكويتية ٢١: ٢٢٠؛ القامـوس الفقهـي لغـةً واصطلاحاً، سـعدي أبـو جيب.

من أعظم العبادات وأجلّها، نعم قد يقلُّ الثواب والأجر إن لم يتوافق كلّ من اللسان والقلب.

ويبدو أنَّ الذكر بكلا الأداتين هو الذي حثَّ اللهُ سبحانه وتعالى عباده على الإكثار منه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾. يقول الفراء: الذِّكْرُ ما ذكرته بلسانك وأَظهرته. والذُّكْرُ بالقلب. يقال: ما زال مني على ذُكْرٍ أَي لم أَنْسَه.

فالذكر يأتي ويُراد منه ما يجري على اللّسان، أي ما ينطق به، يقال: ذكرت الشّيء أذكره ذِكراً وذُكرًا إذا نطقت باسمه أو تحدّثت عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾. أو يُراد منه استحضار الشّيء في القلب، وهو ضدّ النّسيان.

قال تعالى حكايةً عن فتى موسى: ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾.

يقول الشيخ السيوري: الذكر يراد به اللّساني تارة والقلبيّ أخرى، لكنّ المقصود بالذات هو الثاني، وأمّا الأوّل فترجمان للثاني ومنبّه للقلب عليه؛ لكونه في الأغلب مأسوراً في يد الشواغل البدنيّة والموانع الطبيعيّة، وهذا هو السرّ في تكرار الأذكار والتسبيحات والتحميدات وغيرها.

وكما ذكر الراغب في مفرداته: الذكر ذكران، ذكر بالقلب وذكر باللسان، وكلّ واحد منهما ضربان، ذكر عن نسيان، وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ... ومن الذكر عن النسيان قوله: ﴿... فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ...﴾.[1]

ومن الذكر بالقلب واللسان معاً قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾، وقوله تعالى: ﴿... فَاذْكُرُواْ اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ...﴾.

١. سورة الكهف: ٦٣.

الذكـر في قـول القـاضي عياض نوعـان، أحدهما: ذكـر بالقلب، وهو ضربـان: الأول: التفكـر في عظمـة الله تعـالى، وجلاله، وجبروتـه وملكوته، وآياته في سـمواته وأرضه وهو أرفـع الأذكار وأجلها.

الثـاني : ذكـره سـبحانه بالقلـب عنـد الأمـر والنهي، فيمتثـل ما أُمـر به ويُـترك ما نهى عنـه، ويقـف عما أشـكل عليه. الآخـر: ذكر اللسـان مجـرداً. وهو أضعـف الأذكار.

أقـول: إذن فالذكر القلبي والذكر اللسـاني اجتمعـا في الآيتين مورد كلامنـا: ﴿**فَاذْكُرُواْ اللَّهَ عِنـدَ الْمَشْـعَرِ الْحَـرَامِ وَاذْكُـرُوهُ كَمَـا هَدَاكُمْ...**﴾.﴿**فَاذْكُـرُواْ اللَّهَ كَذِكْرِكُـمْ آبَآءَكُـمْ أَوْ أَشَـدَّ ذِكْـراً**﴾. وهـو صريـح قـول الراغـب في مفرداته.

القرطبـي: وأصـل الذِّكر التَّنبه بالقلـب للمذكور والتيقظ له. وسُـمي الذِّكر باللسـان ذِكـراً؛ لأنـه دلالـة عـلى الذكـر القلبي غـير أنه لمـا كثر إطـلاق الذكر عـلى القول اللسـاني صار هـو السـابق للفهم.

ومعنـى الآيـة: اذكـروني بالطاعـة أذكركـم بالثـواب والمغفرة قاله سـعيد بـن جبير. وقـال أيضـاً: الذكـر طاعة الله فمـن لم يطعه لم يذكـره وإن أكثر التسـبيح والتهليل وقراءة القـرآن، وروي عـن النبـيّ صلى الله عليه وآله: «مـن أطـاع الله فقـد ذكـر الله، وإن أقلَّ صلاتـه وصومه وصنيعـه للخـير، ومـن عـصى الله فقـد نـسي الله وإن كثّـر صلاتَـه وصومَـه وصنيعَـه للخير». [1]

ويقـول سـيد قطـب: وإن كان ذكـر الله أشـمل مـن الصـلاة، فهـو يشـمل كلّ صورة يتذكـر فيهـا العبـد ربَّـه، ويتصـل بـه قلبـه سـواء جهـر بلسـانه بهـذا الذكـر أم لم يجهـر، والمقصـود هـو الاتصال المحرك الموحـي على أية حـال، وإنّ القلب ليظل فارغـاً، أو لاهياً أو حائـراً حتـى يتصـل بـالله ويذكـره، ويأنس به، فـإذا هو مليء جـاد قار، يعـرف طريقه، ويعـرف منهجـه، ويعـرف من أيـ والى أيـن ينقل خطـاه، ومن هنا يحـضُّ القـرآن كثيراً،

١. الجامع لأحكام القرآن، الآية: ١٥٢ سورة البقرة.

وتحضُّ السنة كثيراً على الكثرة من ذكر الله.[1]

فيما أضاف آخر : ذكر الروح. حتى قالوا: إنَّ للذكر ثلاثة مقامات: ذكر باللسان وهو ذكر العامّة، ذكر بالقلب وهو ذكر خواصّ المؤمنين، وذكر بالروح وهو لخاصّة الخاصّة وهو ذكر العارفين بفنائهم عن ذكرهم وشهودهم إلى ذاكرهم ومنّته عليهم.

أما الشعراوي: فقد أضاف ذكر الجوارح، يأتي هذا بعد أن يقول: ذكرُ الله تعالى ضربان: ذكر بالقلب وذكر باللسان.

وذكر القلب نوعان: أحدهما: وهو أرفع الأذكار وأجلها التفكر في عظمة الله تعالى وجلاله وجبروته وملكوته وآياته في سماواته وأرضه، وفي أدلة الذات والصفات، وفي أدلة التكاليف من الأمر والنهي حتى يطلع على أحكامها، وفي أسرار مخلوقات الله، ومنه الحديث «خير الذكر الخفي».

والثاني: ذكر بالقلب عند الأمر والنهي، فيمتثل ما أُمر به ويترك ما نهي عنه ويقف عما أشكل عليه. وأضيف إلى نوعي الذكر القلبي الذكر بالجوارح، وهو أن تصير مستغرقة في الطاعات، ومن ثم سمّى الله الصلاة ذكرًا فقال تعالى: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾. وأما ذكر اللسان مجردًا، والمراد به الألفاظ الدالة على التسبيح والتحميد والتمجيد...، فهو وإن كان أضعف الأذكار، لكن فيه فضل عظيم كما جاءت به آيات وأحاديث. ثم الذكر يقع تارةً باللسان ويؤجر عليه الناطق، ولا يشترط استحضاره لمعناه، ولكن يشترط ألا يقصد به غير معناه، وإن انضاف إلى النطق الذكر بالقلب فهو أكمل، فإن انضاف إلى ذلك استحضار معنى الذكر، وما اشتمل عليه من تعظيم الله تعالى ونفي النقائص عنه ازداد كمالًا، فإن وقع ذلك في عمل صالح مما فرض من صلاة أو جهاد أو غيرهما ازداد كمالًا، فإن صحح التوجه وأخلص لله تعالى في ذلك

١. سيد قطب، في ظلال القرآن ٥ : ٢٨٧١ .

فهـو أبلـغ الكمال.[1]

وقـد جـاء كثـير مـن الآيـات القرآنيّـة يحـثُّ عـلى ذكـر الله سـبحانه باللسـان في جميع الظـروف والأحـوال والأوضـاع منهـا:

﴿فَـإِذَا قَضَيْتُـمُ ٱلصَّـلَاةَ فَاذْكُـرُواْ اللَّهَ قِيَامـاً وَقُعُـوداً وَعَلَى جُنُوبِكُـمْ فَـإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُـواْ الصَّـلَاةَ إِنَّ الصَّـلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِـينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً﴾. ﴿فـإذا قضيتم الصَّلاة﴾ معنـاه فـإذا فرغتم مـن صلاتكم أيهـا المؤمنون وأنتـم مواقفو عدوّكـم ﴿**فاذكـروا الله قياماً وقعـوداً**﴾ أي في حـال قيامكم وقعودكـم ﴿**وعلى جنوبكم**﴾ أي مضطجعين فقولـه: ﴿**وعلى جنوبكـم**﴾ في موضـع نصب عطفـاً على ما قبله مـن الحـال أي ادعوا الله في هـذه الأحوال لعلَّـه ينصركم عـلى عدوّكم ويظفركم بهم مثل قولـه: ﴿**يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُـوا وَاذْكُـرُوا اللَّهَ كَثِـيرًا لَعَلَّكُـمْ تُفْلِحُونَ**﴾. عـن ابن عباس وأكثـر المفسرين وقيل: معنـاه فـإذا أردتم الصَّـلاة فصلّوا قياماً إذا كنتم أصحـاء وقعوداً إذا كنتم مـرضى لا تقدرون عـلى القيـام وعـلى جنوبكـم إذا لم تقدروا عـلى القعود عن ابن مسـعود.

وروي أنـه قـال عقيـب تفسـير الآية لم يعـذر الله أحـداً في تـرك ذكـره إلاَّ المغلوب على عقله.[2]

ابـن عاشـور: وذكـر الله، المأمـور به هنـا هو ذكره باللسـان؛ لأنّـه يتضمّن ذكـر القلب وزيادة فإنّه إذا ذكر بلسـانه فقد ذكر بقلبه وبلسـانه، وسَـمِع الذكرَ بسـمعه، وذكَّر مَن يليه بذلـك الذّكـر، ففيه فوائـد زائدة على ذكـر القلب المجرّد، وقرينـة إرادة ذكر اللسـان ظاهرُ وصفـهِ بــ«كثير» لأنّ الذكـر بالقلب يوصف بالقـوة، والمقصود تذكر أنّـه الناصر...[3]

---

١. لسـان العـرب، لابن منظور؛ كنز العرفان، للسـيوري؛ مفردات الراغـب: ١٧٩؛ القاموس الفقهي، سـعدي أبوجيب، ذَكَرَ؛ خواطر محمد متولي الشـعراوي.

٢. تفسير مجمع البيان، للطبرسي: الآية.

٣. التحرير والتنوير، الآية.

ما هو الذِّكر؟

الـذي ورد في القـرآن الأمـر بـه والثنـاء عـلى أهلـه، ومـا رتب عليـه من الجـزاء يطلق عـلى جميع الطاعات الظاهـرة والباطنة، القوليـة والفعلية، فكلُّ ما تصوره القلـب أو أراده أو فعلـه العبـد أو تكلـم به مما يقـرب إلى الله فهو ذكـر الله، والله تعالى شرع العبـادات كلّها لإقامـة ذكـره، فهي ذكـر الله، ويطلق على ذكر الله باللسـان بذكـر أوصافه وأفعالـه والثناء عليـه بنعمـه وتسـبيحه وتكبـيره وتحميـده والتهليـل والصلاة عـلى النبيﷺ، ومـن ذكره ذكـر أحكامـه تعلّمهـا وتعليمهـا، ولهـذا مجالس التعلـم والتعليم يقـال لها مجالـس الذكر، وأفضـل أنـواع الذكر مـا تواطأ عليـه القلب واللسـان.[1]

وقـد ذكـر المفـسّرون وغيرهـم مقاطـع ومفـردات لمفهـوم الذكر، حتـى عـدّوا التلبية والتهليل والتكبير والتسـبيح والتحميد والتمجيد والثناء والدعوات والتضـرع والشـكر ونحوهـا ذكـراً مبـاركاً، شريطة أن يكـون الذكر ذكـراً لا تُمليه العادة، بل تسـري فيه روح العبـادة، وبالتـالي يحظـى الذاكـر بالبركة والأجـر والقرب من ربِّـه تعالى!

فيـما آخـرون منهم توسـعوا في ذلك، فجعلوا جميع مـا تصوره القلب ونطق به اللسـان ممـا يقـرِّب إلى الله تعـالى مـن تعلّم علـم، وتعليمـه، وأمر بمعـروف ونهى عـن منكر، فهو مـن ذكر الله.

الطريحـي: الذكـر يشـمل الصلاة وقراء القرآن والحد ث و تد يس الصلاة ومناظـرة العلماء.[2]

الشـعراوي في خواطـره: وقيـل: الذكـر هـو الإتيـان بالألفـاظ التـي ورد الترغيب في قولهـا والإكثـار منها مثـل الباقيـات الصالحات وهي: «سـبحان الله والحمـد لله ولا إله إلا الله والله أكـبر» ومـا يلتحق بها من الحوقلة والبسـملة والحسـبلة والاسـتغفار ونحو ذلك،

---

١. تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، عبد الرحمن السعدي ٢ : ٣٦٢ .

٢. مجمع البحرين ٢ : ٩٧ .

والدعـاء بخـيري الدنيـا والآخـرة، ويطلق ذكـر الله أيضًا ويـراد به المواظبة عـلى العمل بما أوجبـه أو نـدب إليه كتلاوة القـرآن وقراءة الحديث ومدارسـة العلم والتنفـل بالصلاة... وقيـل: المـراد بذكـر اللسـان الألفاظ الدالـة على التسـبيح والتحميـد والتمجيـد، والذكر بالقلـب التفكـر في أدلـة الـذات والصفـات، وفي أدلـة التكاليف مـن الأمـر والنهي حتى يطلع عـلى أحكامهـا، وفي أسرار مخلوقـات الله.

فضل الذكر :

فضـلاً عـن آيـات قرآنيّـة كثيرة، جـاءت روايـات تُبين فضل ذكـر الله تعالى وتحـثُّ عليه وحتـى يقـع الذكـر موقعـه في تربيـة النفـس، وتظهـر بركاتـه في تهذيبهـا، وثـماره في تقويـم سـلوكها، وزيـادة ارتباطهـا بخالقهـا..، وحتى يتحقـق كلُّ هذا وغـيره الكثـير، تعالوا معنا لنـرى مـا يذكـره الـرازي مـن ترتيـب أو مقدمـات لذلـك:.. إعلـم أنَّ الله تعـالى بـيّن أولاً تفصيـل مناسـك الحجّ، ثمَّ أمـر بعدها بالذكر، فقـال: ﴿**فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ**﴾. ثم بـيّن أنَّ الأولى أن يترك ذكر غيره، وأن يقتـصر عـلى ذكـره، فقـال: ﴿**فَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءابَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا**﴾.

ثـمَّ يقـول الـرازي: وما أحسـن هـذا الترتيـب، فإنـه لا بدَّ مـن تقديـم العبادة؛ لكسـر النفـس وإزالـة ظلماتهـا، ثمَّ بعـد العبـادة لابدَّ من الاشـتغال بذكـر الله تعالى لتنويـر القلب، وتجـلّي نـور جلاله، ثـمَّ بعد ذلك الذكر يشـتغل الرجـل بالدعاء، فـإنَّ الدعاء إنـما يكمل إذا كان مسـبوقاً بالذكـر؛ كما حكـي عن إبراهيم عليه السلام أنـه قدّم الذكـر فقـال: ﴿**الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ**﴾.[1] ﴿**رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ**﴾.[2] فقدم الذكـر على الدعاء.[3]

---

١. سورة الشعراء : ٧٨ .

٢. سورة الشعراء : ٨٣ .

٣. انظر تفسير مفاتيح الغيب : ٢٠١ البقرة .

وأيضاً من فضل الذكر قوله تعالى في كتابه الكريم: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾.[1]

تفضّلٌ عظيمٌ وكرمٌ ودودٌ من الله جلَّ جلاله أن جعل ذكره لنا مكافئاً لذكرنا له، فذكر العبد لله تعالى، يؤدّي إلى ذكر الله تعالى لعبده. بمعنى أنَّ ذكر الإنسان لربّه سبحانه، يترتب عليه أنَّ الله تعالى يذكره، فالله يقابله بالذكر حقًّا: «مَن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، ومَن ذكرني في ملإ ذكرتُه في ملإ خير منه». وشتّان شتّان بين الذكرين!

فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: «وجعل ذكر الله تعالى من أجل ذكره تعالى إياك، فإنّه ذكرك وهو غني عنك، فذكره لك أجلّ وأشرف وأسنى وأتمَّ من ذكرك له».

ومما قالوه في تفسير هذه الآية:

«أذكروني بطاعتي أذكركم برحمتي... أذكروني بالشكر أذكركم بالزيادة»!

«أذكروني على ظهر الأرض أذكركم في بطنها! أذكروني في الدنيا أذكركم في الآخرة»!

«أذكروني في الرخاء أذكركم في البلاء! أذكروني بالتعظيم أذكركم بالتكريم»!

«أذكروني من حيث أنتم أذكركم من حيث أنا ولذكر الله أكبر».

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من الدينار والدرهم، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتقتلونهم ويقتلونكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: ذكر الله عزَّ وجلَّ كثيراً».

و روي عنه صلى الله عليه وآله: «عليك بتلاوة القرآن وذكر الله كثيراً، فإنَّه ذكر لك في السماء ونور لك في الأرض».

---

١. سورة البقرة: ١٥٢.

و روي عـن الإمـام عـليٍّ عليه السلام: «أفيضوا في ذكر الله جـلَّ ذكره، فإنَّه أحسـن الذكر، وهو أمـان مـن النفـاق، وبـراءة من النـار، وتذكير لصاحبـه عند كلِّ خير يقسـمه الله جـلَّ وعزَّ وله دوي تحـت العرش».

و عـن الإمـام الصـادق عليه السلام أنّـه قال لما سـئل: «من أكرم الخلـق عـلى الله؟ أكثرهم ذكراً لله وأعملهم بطاعته».

روى ابـن عبـاس عـن النبيِّ صلى الله عليه وآله أنَّه قـال: «من عجز عـن الليل أن يكابـده، وجبن عن العـدو أن يجاهـده، وبخل بالمـال أن ينفقه؛ فليكثر ذكـر الله عزَّ وجلَّ».

وروي عـن رسـول الله صلى الله عليه وآله: «أحـبّ الأعـمال إلى الله أن تموت ولسـانك رطب من ذكر الله».[1]

قـال الطيبـي: رطوبة اللسـان عبارة عن سـهولة جريانه، أن يبسـه عبارة عـن ضده، ثم إنَّ جريان اللسـان عبارة عـن مداومة الذكر.[2]

تكرار الذكر:

سؤال صاغه الرازي حول قوله تعالى: ﴿...فَاذْكُرُواْ اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ...﴾.

فلِمَ قال مرةً أخرى ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾. وما الفائدة في هذا التكرير؟.

ويجيـب الـرازي نفسـه عن هذا السـؤال الذي طرحه في تفسـيره بوجوه تسـعة، وذلك بعـد أن يذكـر أنَّ مذهبنا ـ والـكلام للرازي ـ أنَّ أسـماء الله تعالى توقيفية لا قياسـية. فقوله أولاً: ﴿أُذْكُـرُواْ اللهَ﴾ أمـر بالذكـر. وقولـه ثانيـاً: ﴿وَاذْكُـرُوهُ كَمَـا هَدَاكُمْ﴾ أمـر لنا بأن

---

١. بحارالأنـوار، العلامـة المجلسـي ٢٩ : ٧٤ بـاب ٤ ح ١؛ ٩٣ : ١٥٧ ؛ ٧٧ : ٢٩٠ ؛ ٩٣ : ١٦٤؛ الخصـال ٢ : ٥٢٥ ؛ المحاسـن، للبرقـي ١ : ٣٨ ثـواب فضـل ذكـر الله ؛ مجمـع البيـان، للطـبرسي ؛ مفاتيـح الغيـب، للـرازي، سـورة البقـرة : ١٥٢ ؛ سـورة الأحـزاب : ٤٧ .

٢. فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي ١ : ٢١٥ .

نذكره سبحانه بالأسماء والصفات التي بيّنها لنا وأمرنا أن نذكره بها، لا بالأسماء التي نذكرها بحسب الرأي والقياس.

وثانيها: أنه تعالى أمر بالذكر أولاً، ثم قال ثانياً: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ أي وافعلوا ما أمرناكم به من الذكر كما هداكم الله لدين الإسلام، فكأنه تعالى قال: إنما أمرتكم بهذا الذكر؛ لتكونوا شاكرين لتلك النعمة، ونظيره ما أمرهم به من التكبير إذا أكملوا شهر رمضان، فقال: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾.[1]

وقال في الأضاحي: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾.[2]

وثالثها: أنَّ قوله أولاً: ﴿...فَاذْكُرُواْ اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ...﴾. أمر بالذكر باللسان. وقوله ثانياً: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ أمر بالذكر بالقلب.

وتقريره أنَّ الذكر في كلام العرب ضربان: أحدهما: ذكر هو ضد النسيان. والثاني: الذكر بالقول.

فما هو خلاف النسيان قوله: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾.[3]

وأما الذكر الذي هو القول فهو كقوله: ﴿فَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءابَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾.[4] ﴿وَاذْكُرُواْ اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾.[5]

فثبت أنَّ الذكر وارد بالمعنيين: فالأول، محمول على الذكر باللسان، والثاني: على الذكر بالقلب، فإنَّ بهما يحصل تمام العبودية. ثمَّ يواصل الرازي إجابته، نكتفي ببعضها تلخيصاً:

---

١. سورة البقرة: ١٨٥.

٢. سورة الحج: ٣٧.

٣. سورة الكهف: ٦٣.

٤. سورة البقرة: ٢٠٠.

٥. سورة البقرة: ٢٠٣.

ـ أي اذكروه ذكراً بعد ذكر، كما هداكم هداية بعد هداية ...

ـ أنه تعالى أمر بالذكر عند المشعر الحرام، إشارة إلى القيام بوظائف الشريعة، ثم قال: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ أن توقيف الذكر على المشعر الحرام فيه إقامة لوظائف الشريعة، فإذا عرفت هذا قربت إلى مراتب الحقيقة، وهو أن ينقطع قلبك عن المشعر الحرام، بل عمّن سواه، فيصير مستغرقاً في نور جلاله وصمديته، ويذكره لأنه هو الذي يستحق لهذا الذكر؛ ولأنَّ هذا الذكر يعطيك نسبة شريفة إليه بكونك في هذه الحالة تكون في مقام العروج ذاكراً له ومشتغلاً بالثناء عليه، وإنما بدأ بالأول وثنى بالثاني، لأنَّ العبد في هذه الحالة يكون في مقام العروج فيصعد من الأدنى إلى الأعلى، وهذا مقام شريف ...، ومن أراد أن يصل إليه، فليكن من الواصلين إلى العين، دون السامعين للأثر.

ـ المراد بالأول هو ذكر أسماء الله تعالى وصفاته الحسنى، وبالثاني: الاشتغال بشكر نعمائه،.. والذكر المرتب على النعمة لس إلّا الشكر.

ـ لما قال: ﴿...**فَاذْكُرُواْ اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ**...﴾ جاز أن يظن أنَّ الذكر مختصٌّ بهذه البقعة وبهذه العبادة، فأزال الله تعالى هذه الشبهة فقال: ﴿**وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ**﴾ يعني اذكروه على كلّ حال، وفي كلّ مكان، لأنَّ هذا الذكر إنما وجب شكراً على هدايته، فلما كانت نعمة الهداية متواصلة غير منقطعة، فكذلك الشكر يجب أن يكون مستمراً غير منقطع.

ـ الذكر الأول الجمع بين صلاتي المغرب والعشاء في المشعر، والثاني: التهليل والتسبيح.[1]

أبوحيان: ﴿**وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ**﴾ هذا الأمر الثاني هو الأول، وكرّر على سبيل التوكيد والمبالغة في الأمر بالذكر، لأنَّ الذكر من أفضل العبادات، أو غير الأول، فيراد

١. تفسير الفخر الرازي: الآية.

بـه تعلقـه بتوحيد الله، أي: واذكـروه بتوحيده كما هداكـم بهدايته، أو اتصـال الذكر لمعنى: اذكـروه ذكـراً بعـد ذكـر... ثـمَّ يقـول:.. والمعنـى: أوجـدوا الذكـر عـلى أحسـن أحواله مـن مماثلتـه لهدايـة الله لكـم، إذ هدايته إياكم أحسـن ما أسـدي إليكـم من النعـم، فليكن الذكـر مـن الحضـور والديمومـة في الغاية حتـى تماثل إحسـان الهدايـة، ولهـذا المعنى قال الزمخشــري: أذكـروه ذكـراً حسـناً كما هداكـم هداية حسـنة... أو بـأن ردّكم في مناسـك حجّكـم إلى سـنة إبراهيـم صلى الله عـلى نبينا وعليه، فـما عامة تتنـاول أنـواع الهدايات من معرفـة الله، ومعرفـة ملائكته وكتبـه ورسـله وشرائعه ...[1]

الزمخـشري: اذكـروهُ ذكـراً حسـناً كـما هداكـم هداية حسـنة، أو اذكـروه كـما علّمكم كيـف تذكرونـه، لا تعدلـوا عنه.[2]

وللشـيخ السـيوري كلام مفيـد أيضـاً حـول تكـرار الذكـر في آيـات هـذا المقطـع ، ولكـن بعـد أن يذكـر أنَّ هذه الآية: ﴿**فَـإِذَا قَضَيْتُمْ مَّنَاسِـكَكُمْ فَاذْكُـرُواْ اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءابَاءكُـمْ أَوْ أَشَـدَّ ذِكْـرًا**﴾. يحسـن ذكرهـا هنـا متابعـة لنسـق الكتـاب ، ويحسـن أيضاً ذكرهـا بعـد الطواف والسـعي وغيرهمـا لقولـه: ﴿مَنَاسِـكَكُمْ﴾، وهو جمع مضـاف، فيفيد العمـوم لـكلّ المناسـك، التـي هي أعـمال الحـجّ،... ثـمَّ راح يذكـر فوائد:

ـ لّمـا اشـتدّت عنايـة الله تعـالى بعبيـده بفعـل الأصلح لهـم، وكان اللطـف في ذلك يقع منـه تـارةً ومن العبيـد أُخرى، فـما كان منه فعله بحكمتـه، وما كان منهـم اقتضت الحكمة حضّهـم عليـه وإرشـادهم إلى القيـام به، فلذلك كـرّر الأمـر بالذكر في هـذه الآيات خمس (أربـع) مـرّات، وجعـل محـلّ الذكر الأزمنـة الشــريفة والأمكنـة المنيفة ضمـن العبادات العظيمـة؛ ليكثر لهم الجـزاء، كلّ ذلك إعلاماً بشـدّة العناية بعبيـده، وإلّا فالجناب القدسيّ أعظـم مـن أن يعود إليـه من ذلك نفـع أو ينتفـي عنه ضرر.

---

١. تفسير البحر المحيط، أبوحيان (ت ٧٥٤ هـ) .

٢. تفسير الكشاف، الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ): الآية : ١٩٨ .

ـ الذكر يراد به اللّساني تارة والقلبيّ أخرى، لكنّ المقصود بالذات هو الثاني، وأمّا الأوّل فترجمان للثاني ومنبّه للقلب عليه؛ لكونه في الأغلب مأسوراً في يد الشواغل البدنيّة والموانع الطبيعيّة، وهذا هو السرّ في تكرار الأذكار والتسبيحات والتحميدات وغيرها.

ـ لا يتوهّم أنّ ذكره تعالى ينقطع بانقطاع المناسك؛ لتعليق الأمر بقضائها، بل هو دائم مستمرّ لا ينبغي للمكلّف أن يغفل عنه، ودلالة مفهوم المخالفة باطلة كما تقرّر في الأصول، وإنّما سبب التعليق ما كانت العرب تعتاده بعد قضاء مناسكها من الوقوف بمنى، وذكر محامد الآباء ومفاخرهم، فأمرهم بالعدول عن ذلك الّذي لا يفيد إلى ما هو المفيد.[1]

من الدرس الفقهي :

لقد استفيد من هذه الآية: ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءابَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا**﴾. دليلاً على وجوب الوقوفين؛ الوقوف في عرفات، والوقوف في المزدلفة، وكلّ واحدة تشكل بقعةً من بقاع مناسك الحج وشعائره، وهو ما استفاده عدد من العلماء؛ فقهاء ومفسرين، فبعضهم ذهب إلى هذا فيما خالفهم آخرون، وبعض ذهب إلى أنَّ الذكر واجب فيما خالفهم بعض آخر وقال بعدم وجوب الذكر... هذا ما نجده فيما تيسر لنا من أقوال نوجزها، وقد نتصرف فيها قليلاً.

الشيخ الطبرسي: ﴿**فإذا أفضتم**﴾ أي دفعتم عنها بعد الاجتماع فيها﴿**فاذكروا الله**﴾ وفي هذا دلالة على أنَّ الوقوف بالمشعر الحرام فريضة، كما ذهبنا إليه؛ ظاهر الأمر على الوجوب فقد أوجب الله الذكر فيه، ولا يجوز أن يوجب الذكر فيه إلّا وقد أوجب الكون فيه؛ ولأنَّ كلَّ من أوجب الذكر فيه فقد أوجب الوقوف. وتقدير الكلام فإذا

١. كنز العرفان : الآيات .

أفضتم من عرفات، فكونوا بالمشعر الحرام واذكروا الله فيه.

ونوجز كلاماً مفصلاً للفقيه الراوندي في الآية: ﴿**فإذا أفضتم**﴾ يقول: بيّن تعالى فرض الموقفين عرفات والمشعر، أي إذا دفعتم من عرفات بعد الاجتماع بها، فاذكروا الله عند المشعر الحرام. أوجب الله ع الحاج كلهم أن يذكروا الله بالمشعر؛ لأنَّ الأمر شرعاً على الوجوب، ولا يجو أن يوجب الذكر فيه إلّا وقد أوجب الكون فيه، ففي هذا دلالة على أنّ الوقوف بالمشعر الحرام ليلة العيد فريضة كما ذهبنا إليه... مما يدلّ على أنّ الوقوف بالمشعر الحرام واجب وهو ركن من أرك ن الحج.

والأمر شرعاً على الايجاب، ولا يجو أن يوجب ذكر الله فيه إلّا وقد أوجب الكون فيه، ولأنَّ كلَّ من أوجب الذكر فيه أوجب الوقوف... فإن قالوا: نحمل ذلك على الندب، قلنا: هو خلاف الظاهر، ويحتاج إلى دلالة ولا دليل. فإن قيل: هذه الآية تدلّ على وجوب الذكر وأنتم لا توجبونه، وإنما توجبون الوقوف به كالوقوف بعرفة. قلنا: لا يمتنع أن نقول بوجوب الذكر بظاهر هذه الآية. وبعد، فإنَّ الآية تقتضي وجوب الكون في المكان المخصوص والذكر جميعاً، فإذا دلَّ الدليل على أن الذكر مستحب غير واجب أخرجناه من الظاهر، وبقي الآخر يتناوله الظاهر.

وتقدير الكلام: فإذا أفضتم من عرفات، فكونوا بالمشعر الحرام، واذكروا الله فيه. فان قيل: الكون في المكان يتبع الذكر في وجو أو استحباب؛ لأنه إنما يراد له ومن أجله، فإذا ثبت أنَّ الذكر مسحب فكذلك الكون. قلنا: لا نسلم أنّ الكون في ذلك المكان تابع للذكر؛ لأنَّ الكون به عبادة مفردة عن الذكر والذكر عبادة أخرى، فلا يتبع الكون الذكر كما لا يتبع الذكر لله في عرفات الكون في ذلك المكان والوقوف به؛ لأنَّ الذكر بعرفات مسحب والوقوف بها واجب بلا خلاف.

على أنَّ الذكر لو لم يكن واجباً، فالشكر لله على نعمه واجب على كلِّ حال، وقد أمر الله أن يشكر عند المشعر الحرام، فيجب أن يكون الكون بالمشعر واجباً.

فإن قيل: ما أنكرتم من أن يكون المشعر ليس بمحل للشكر وإن كان محلاً للذكر، وان عطف الشكر على الذكر. قلنا: الظاهر بخلاف ذلك، عطف الشكر على الذكر يقتضي تساوي حكمهما في المحل وغيره، وليس في الآية ذكر الشكر صريحاً، ولكن الذكر الأول على عمومه والذكر الثاني مفسر بالشكر؛ لقرينة قوله: ﴿**كما هداكم**﴾ فالهداية نعمة واجب الشكر عليها؛ لأنَّ الشكر على كلّ نعمة واجب. وعلى هذا لا تكرار مستقبحاً في الكلام أيضاً.

أما السيوري فبعد أن جعل هذه الآية ضمن آيات في أفعال الحجّ وأنواعه وشيءٍ من أحكامه، يقول: ﴿**فَإِذا أَفَضْتُمْ**﴾ وأصله أفضتم أنفسكم، وترك ذكر المفعول، وفيه دلالة على وجوب الكون بعرفة، وأنّه من فرائض الحجّ؛ لأنّه سبحانه أمر بالإفاضة منه بقوله: ﴿**ثُمَّ أَفِيضُوا**﴾ وهو يستلزم الكون به. ولا خلاف في وجوبه لقوله ﷺ: «الحجُّ عرفة». وهو ركن يبطل الحجّ بتركه عمداً، وواصل كلامه عن ﴿**فَاذْكُرُوا**﴾ قائلاً: وفيه دلالة على وجوب الكون به كما يقوله أصحابنا خلافاً للفقهاء، وذلك لأنّ الذكر المأمور به عنده يستلزم الكون فيه، فيكون واجباً وهو ركن كعرفة.

الزمخشري: وقيل، فيه دليل على وجوب الوقوف بعرفة؛ لأنّ الإفاضة لا تكون إلّا بعده. وعن النبيِّ ﷺ: «الحج عرفة، فمن أدرك عرفة فقد أدرك الحج». وقيل، بصلاة المغرب والعشاء، ﴿**فَاذْكُرُواْ اللهَ**﴾ بالتلبية والتهليل والتكبير والثناء والدعوات.

البيضاوي: ... وفيه دليل على وجوب الوقوف بها؛ لأنَّ الإفاضة لا تكون إلّا بعده وهي مأمور بها بقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَفِيضُواْ**﴾ أو مقدمة للذكر المأمور به، وفيه نظر إذ الذكر غير واجب بل مستحب. وعلى تقدير أنه واجب فهو واجب مقيد لا واجب مطلق حتى تجب مقدمته والأمر به غير مطلق.

﴿**فَاذْكُرُواْ اللهَ**﴾ بالتلبية والتهليل والدعاء. وقيل: بصلاة العشاءين. ﴿**عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ**﴾.

أما الرازي، فيقول: الصحيح أنَّ الآية تدلّ على أنَّ الحصول بعرفة واجب في الحجّ، وذلك أنَّ الآية دالة على وجوب ذكر الله عند المشعر الحرام عند الإفاضة من عرفات، والإفاضة من عرفات مشروطة بالحصول في عرفات، وما لا يتمّ الواجب إلّا به وكان مقدوراً للمكلف فهو واجب، فثبت أنَّ الآية دالة على أنَّ الحصول في عرفات واجب في الحجّ.

وتدلّ الآية أنَّ الحصول عند المشعر الحرام واجب، ... وبعض قال بركنيته... حجته الآية نفسها. وذلك لأنَّ الوقوف بعرفة لا ذكر له صريحاً في الكتاب، وإنما وجب بإشارة الآية أو بالسنة، والمشعر الحرام فيه أمر جزم، فيما قال جمهور الفقهاء: إنه ليس بركن، واحتجوا بقوله عليه السلام: «الحج عرفة فمن وقف بعرفة فقد تمَّ حجُّه». «من أدرك عرفة فقد أدرك الحج، ومن فاته عرفة فقد فاته الحج» وبقوله: وفي الآية إشارة إلى ما قلنا؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللهَ عِندَ الْمَشْعَرِالْحَرَامِ﴾، أمر بالذكر لا بالوقوف، فعلم أنَّ الوقوف عند المشعر الحرام تبع للذكر وليس بأصل، وأما الوقوف بعرفة فهو أصل؛ لأنه قال: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ﴾، ولم يقل من الذكر بعرفات.

ثمَّ يكمل كلامه فيقول:.. الفاء في قوله: ﴿فَاذْكُرُواْ اللهَ عِندَ الْمَشْعَرِالْحَرَامِ﴾، تدلّ على أنَّ الذكر عند المشعر الحرام يحصل عقيب الإفاضة من عرفات، وما ذاك إلّا بالبيتوتة بالمزدلفة. أما عن الذكر فيقول: اختلفوا في الذكر المأمور به عند المشعر الحرام، فقال بعضهم: المراد منه الجمع بين صلاتي المغرب والعشاء هناك، والصلاة تسمّى ذكراً: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِى﴾.[1]

والدليل عليه ﴿فَاذْكُرُواْ اللهَ عِندَ الْمَشْعَرِالْحَرَامِ﴾، أمر وهو للوجوب، ولا ذكر هناك يجب إلّا هذا، وأما الجمهور فقالوا: المراد منه ذكر الله بالتسبيح والتحميد

١. سورة طه: ١٤.

والتهليـل، وعـن ابن عبـاس أنه نظر إلى الناس في هـذه الليلة وقال: كان النـاس إذا أدركوا هـذه الليلـة لا ينامون.

الآلـوسي: (﴿فَاذْكُـرُواْ اللهَ﴾ بالتلبية والتهليـل والدعاء، وقيل: بصلاة العشـاءين؛ لأنَّ ظاهـر الأمر للوجـوب ولا ذكر واجب ﴿عِنـدَ الْمشْـعَرِالْحَرَامِ﴾ إلّا الصلاة.

ابـن عاشـور:.. وذكـر الإفاضة مـن عرفـ ت يقتضي سـبق الوقـوف به؛ لأنـه لا إفاضة إلّا بعـد الحُلـول بهـا، وذِكـر عرفات باسـمه تنويـه به يـدلّ عـلى أنَّ الوقوف بـه ركن، فلم يُذكـر مـن المناسـك باسـمه غـير عرفـة والصفـا والمـروة، وفي ذلـك دلالـة عـلى أنهما من الأركان... وذهـب علقمـة وجماعة من التابعـين والأوزاعـي إلى أنَّ الوقوف بمزدلفة ركن مـن الحـج، فمن فاتـه بطل حجّه تمسّـكاً بظاهـر الأمر في قولـه: ﴿فاذكـروا الله﴾.[1]

إذن فوجـوب الوقـوف بالمشـعر وركنيته يسـتفاد مـن ظاهـر الأمر: ﴿فاذكـروا الله﴾.

وأمـا عـن جزء الآية الأخـير، المراد مـن الهداية في قولـه تعـالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَـا هَدَاكُمْ وَإِن كُنْتُـمْ مِّـن قَبْلِـهِ لَمِـنَ الضَّآلِّـينَ﴾. تعديـداً لعظيم نعمه سـبحانه، وأمراً بشـكرها، وتذكـيراً لهـم بضلالهـم، وليوقفهم على عظيـم هدايته لهـم وإنعامه عليهم؛ جـاءت الآية: ﴿وَاذْكُرُوهُ﴾. ذكراً حسـناً؛ كما هداكم هداية حسـنة لدينه ولقرآنه ولرسـوله ﷺ ولمناسـك الحـجّ الإبراهيمـي بعيـداً عمّا أصابها مـن انحـراف... اذكروه ذكـراً يوازي نعمـه عليكم، واشـكروه شـكراً جميـلاً، ولنعم مـا قاله الشـيخ الطبرسي: واذكـروه بالثناء والشـكر على حسـب نعمتـه عليكم بالـهداية، فإنَّ الشـكر يجب أن يكـون على حسـب النعمة في عظم المنزلـة، كـما يجـب أن يكـون عـلى مقدارها لو صغـرت النعمـة، ولا يجوز التسـوية بين من

١. انظـر مجمع البيـان، للطبرسي؛ فقه القرآن، قطـب الدين الراونـدي: ٢٧٧، ٢٨٦ـ٢٨٧؛ كنز العرفان في فقـه القرآن، للشـيخ جمال الدين السـيوري: ٣٠٣ـ٣٠٤؛ الكشـاف، للزمخشـري؛ أنـوار التنزيل وأسرار التأويـل، للبيضـاوي؛ مفاتيـح الغيب، الرازي: الآية، المسـائل: السادسـة والسـابعة والثامنة والتاسـعة؛ روح المعـاني، الآلـوسي؛ التحريـر والتنوير؛ ابن عاشـور: الآية.

عظمت نعمته وبين من صغرت نعمته. وتقدير الكلام واذكروه ذكراً مثل هدايته إياكم.

﴿وإن كنتم﴾ أي وإنكم كنتم من قبله أي من قبل الهدى، وقيل: من قبل محمدﷺ، فتكون الهاء كناية عن غير مذكور ﴿لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن النبوّة والشريعة فهداكم إليه.

الشيخ السيوري: أي اذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة إلى المناسك وغيرها... ﴿وَإِن كُنْتُمْ مِّن قَبْلِهِ﴾ أي قبل الهداية، أو قبل محمدﷺ ﴿لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي الجاهلين بالإيمان والطاعة.

وأما الرازي فيجيب عن المراد من الهداية في قوله: ﴿كَمَا هَدَاكُمْ﴾؟ منهم من قال: إنها خاصة، والمراد منه كما هداكم بأن ردّكم في مناسك حجّكم إلى سنة إبراهيمعليه السلام، ومنهم من قال: لا بل هي عامة متناولة لكل أنواع الهداية في معرفة الله تعالى، ومعرفة ملائكته وكتبه ورسله وشرائعه.

ويجيب عن الضمير في: ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ إلى ماذا يعود؟ والضمير يحتمل أن يكون راجعاً إلى ﴿الْهُدَى﴾ والتقدير: وإن كنتم من قبل أن هداكم من الضالين، وقال بعضهم: إنه راجع إلى القرآن، والتقدير: واذكروه كما هداكم بكتابه الذي بيّن لكم معالم دينه، وإن كنتم من قبل إنزال ذلك عليكم من الضالين.[1]

و للبحث صلة تأتي في العدد القادم إن شاءالله تعالى

***

١. انظر: مجمع البيان، الطبرسي؛ كنز العرفان، السيوري ١: ٣٠٤؛ مفاتيح الغيب، للرازي: الآية.